فصل تمهيدى لمراحل الوجود عند كيركجور

الفصل الثالث

• مقدمة :

1ـ « سمات عامة لمراحل الوجود » :

تعد وظائف الأنطولوجيا عند كيركجور، مبدأ موحدًا لمراحل الوجود البشرى الثلاث، التى تضمنتها كتاباته الاستعارية، والتى تعد مشروعه الفلسفى الأساسى، وإسهامه الوحيد الذى ينتسب به إلى تاريخ الفلسفة.

ويعبر هذا المشروع عن عديد من الإمكانات، تتفتح على الوجود العينى البشرى، تتمثل فى ثلاث مراحل. المرحلة الجمالية، والمرحلة الأخلاقية، والمرحلة الدينية.

وتمثل هذه الإمكانات، التحديدات الوجودية للشخصية الإنسانية، وكذلك تمثل النماذج العامة للحياة. ومن الممكن معرفة مراحل الوجود عند كيركجور من خلال أبحاثه، مثل: "أما - أو" Either / or، و"خوف ورعدة" Fear and Trembling و"التكرار" Repetition، و"مراحل على طريق الحياة" Stages On Life's Way و"مفهوم القلق" The Concept of Dread و"المرض حتى الموت" The Sickness unto Death.

يعرض كيركجور فى أول هذه المؤلفات "إما ـ أو"، مجالات الاختيار بين المرحلة الجمالية، والمرحلة الأخلاقية، ولكن لا يوجد فى هذا الكتاب، قرار يمكن الوصول إليه، حيث يرى، أن موقف الفرد فى هاتين المرحلتين، يتطلب إمكانية دينية، يتم الإشارة إليها من خلال الموعظة التى يختتم بها الكتاب.

أما الكتابان اللذان يليان "إما ـ أو"، فى النسق التخطيطى لمؤلفات كيركجور الجمالية "التكرار" و"خوف ورعدة"، فيعرضان كلاً من وجهى القرار، من حيث إما الجمالى، أو الأخلاقى، وذلك فى تحليل جديد. فينتقد كتاب "التكرار"، الحياة الجمالية بشكل جديد، بينما يؤكد كتاب "خوف ورعدة"، على أن وجهة النظر الأخلاقية ليست كافية لإدراك حقائق الإيمان الدينى.

ومن ناحية أخرى، يتضمن كتابًا "مفهوم القلق" و"المرض حتى الموت"، إمكانات الوجود الإنسانى المختلفة، حيث ينصب اهتمام كيركجور فيهما على الإجابة عن سؤال: كيف يكون الطريق ممكنًا بالنسبة للوجود العينى الإنسانى ليحقق ذاته؟

ومن ثم أصبح الطريق ممهدًا من أجل معالجة المرحلة الدينية فى كتاب "المراحل"، و"الحاشية"، وأيضًا "الأعمال الدينية الخالصة".

إن التقسيم الثلاثى لهذه المراحل، وكذلك العلاقة فيما بينها، ليس صنعًا جاهزًا استقاه كيركجور من مصادر الفلسفة الهيجلية، بل ـ كما يرى كيركجور ـ أنها مقصورة على الاختيارات المتبادلة للفرد. بمعنى أنها تبدو مفروضة على الفرد من خلال تأمل خبرته الذاتية. ومن ثم لا يمكن تعميم هذه المراحل، دون الأخذ فى الحسبان، الظروف الخاصة للفرد [1].

إن نظرية كيركجور عن المراحل تتطور تطورًا تدريجيًا فى كتاباته، وهى أداة طيعة لتفسير الخبرة الإنسانية، أكثر من أن تكون صياغة مطلقة وصلبة. والعلاقة بينها تعد جسرًا يمر به الفرد كى يحقق الأبدى، ليس ذلك خلال الدمج التدريجى لهذه المراحل، أو من خلال التحول الحتمى من مرحلة إلى أخرى، وإنما يكون من خلال قفزة الفرد، وقراره الحر.

ليس المقصود من استخدام كيركجور لمصطلح "المرحلة" Stage هنا، "المجال" Sphere أو "المدرج" Stair، بل إنه يشير باستخدامه للمصطلح، إلى مفهوم المرحلة فى حد ذاته [2]، حيث إنه استخدم فى ذلك، الكلمة الدانيماركية Stadier، استخدامًا غير محدد لأى مجال للنشاط الإنسانى، مما أدى إلى ترجمتها إما "بالمجال"، أو "المدرج".

وقد أخذ كيركجور تدريجيًا فى إفراد هذه الكلمة بمعناها الفنى والخصب، بغرض ترتيب المثل المتاحة للأفراد. فمن ناحية، قد يكون فى تفسير كلمة Stadier

فى استخدام كيركجور بالمرحلة سوء فهم، ذلك لأنه من الناحية النظرية، يتطلب الفرد أولاً الدرجة الجمالية فى سلم الحياة، ثم يرتفع متعاليًا فى توال، إلى المرحلة الأخلاقية، ثم إلى المرحلة الدينية، لكن لا يقصد كيركجور أن يكون هذا المخطط مفهومًا تبعًا لأى نظام زمانى. لذلك قد تكون ترجمة الكلمة Stadier "بالمجال"، أقرب إلى الصواب [3]، لكن نظرًا لأن المجالات تتم معالجتها، بوصفها حاضرة حضورًا زمنيًا، ومتشابكة فى حياة الفرد، فإننا نرى، أن استخدام كلمة "المجال" ليس فى موضعه، إلى جانب ذلك يغلب عليه، الطابع السكونى. ومن ناحية أخرى، فإن ترجمة كلمة Stadier "بالمدرج" ليست ترجمة صالحة، لأن هذه الكلمة "المدرج"، تحمل طابعًا صوفيًا واضحًا. لهذا كله آثرنا استخدام كلمة "المرحلة" لأنها تؤكد بدقة على الطابع التطورى فى جدل كيركجور [4].

وتأكيداً لذلك، لا يعد انتقال الفرد من مرحلة إلى أخرى ـ كما يرى كيركجور ـ انتقالاً تدريجيًا، وإنما يقوم على العملية التطورية لحياة الفرد. فإذا كان كل فرد فى مراحله المختلفة متأثرًا بموقفه الجمالى، فإن عملية "النقد الذاتى"، و"التهذيب الذاتى" له، يجب أن تبدأ مع تأمله حول هذا الموقف الجمالى لكل الوجود، وذلك يتم من خلال المرحلة الأخلاقية.

وفضلاً عن ذلك، تعد المراحل المختلفة متميزة كل منها عن الأخرى، وربما تعتبر فى الواقع متصارعة معًا، لكنها من المستحيل أن تحيا معًا. بمعنى أن الفرد لا يستطيع أن يتخذ موقفًا من هذه المراحل، وكذلك لا يستطيع أن يوفق فيما بينها.

فمن وجهة النظر هذه، قد يظل الفرد فى مرحلة ما من هذه المراحل، أو ينتقل من مرحلة ما إلى أخرى، بمعنى أنه يخلف وراءه المرحلة السابقة (جمالية مثلاً أو أخلاقية) فى مقابل اختياره بعض النماذج الخاصة للوجود الإنسانى (أخلاقية مثلاً أو دينية). وذلك على الرغم من عدم وجود نظام خاص لهذا الانتقال.

« فى الواقع، ربما تكون المعاناة، حاضرة فى كل المراحل المتنوعة للوجود الإنسانى. ولكن عندما يكون الكتاب مخططًا هكذا، بوصفه مشتملاً على

المرحلة الجمالية، ثم المرحلة الأخلاقية، وأخيرًا المرحلة الدينية، وعندما تصبح كلمة المعاناة مستخدمة لأول وهلة هنا، سوف يبدو ذلك إشارة إلى أن المعاناة تعد اتصال لشكل مختلف بالمرحلة الدينية عن المرحلة الأخلاقية، وعن المرحلة الجمالية » (5)

تشتمل مراحل الوجود على بنية محددة، تحديدًا فعليًا، علاجها كيركجور وفقًا للتقسيم الثلاثى للجدل الهيجلى للموضوع Thesis، ونقيض الموضوع Anti-thesis، ومركب الموضوع Synthesis. لكنه مع ذلك استنتج أن التطابق الهيجلى لهذا التقسيم مع بنية الفكر، يعتبر متناقضًا، مع بنية مراحل الوجود من خلال الخبرة الإنسانية. بمعنى أنه يهدف إلى أن يربط المبدأ الجدلى، مع حركة الاختيارات الإنسانية، أكثر من ربطه مع تجلى المطلق.

« توجد ثلاث مراحل: المرحلة الجمالية، والمرحلة الأخلاقية، والمرحلة الدينية، لكنها ليست متمايزة على نحو مجرد، بوصفها: المباشرة، والتوسط، ومركب الاثنين، بل بالأحرى متمايزة على نحو عينى، فى تعينات وجودية بوصفها: استمتاع، وضياع، وفعل، وانتصار، ومعاناة » (6)

تنقسم مراحل الوجود الثلاثة عند كيركجور، إلى مراحل جدلية أكثر تعقيدًا:

أولاً : المرحلة الجمالية The Aesthical Stage:

وهى المرحلة التى يحيا فيها الفرد من أجل اللذة الحسية، وهو فى بحثه عن اللذة والمتعة، يتجاهل الإلزام الخلقى، وينسى الاهتمامات الدينية، كما أنه فى الوقت ذاته، يجهد نفسه فى فكرٍ تأملى، حيث يقوم بملاحظة الظواهر التى تتبدى أمامه، بهدف الوصول إلى نظرةٍ موضوعيةٍ شاملةٍ. وعلى ذلك تنقسم المرحلة الجمالية عند كيركجور إلى طرفى نقيض:

"الحسية المباشرة" ، "والجمالية التأملية"

وتعنى "المباشرة" هنا، غياب القرار، الذى هو السمة الرئيسية فى هذه المرحلة

بطرفيها. ففى السمة الأولى، تبدو المرحلة الجمالية ضربًا من الحياة التى تسيطر عليها الميل الحسى الكامل، أما فى السمة الثانية، فتبدو هذه المرحلة نمطًا من الوجود يسيطر عليه الفكر الموضوعى، أى الفكر التأملى المجرد، الذى يخلو من عاطفة الذات. وهو يؤكد أيضًا، غياب القرار، لأنه فكر مجرد لا يخرج من حيز التجريد إلى الفعل.

وإلى جانب هذا، ينقسم النقيض الأول للمرحلة الجمالية (الحسية المباشرة) إلى ثلاثة أطوار، الرغبة، وموضوع الرغبة، ومركب الاثنين. معنى هذا، أن النقيض الأول يتسم بسيادة الرغبة.

ويوجد تمايز تدريجى للرغبة وموضوعها فى هذا النقيض (الحسية المباشرة)، وذلك من خلال حركة الفرد التدريجية بين مراحله الثلاثة، كما أن حركته هذه، تبلغ ذروتها فى الطور الثالث المركب من الرغبة وموضوعها.

أما النقيض الثانى (الجمالية التأملية) يكون فيه الفرد ممزق، ومتوتر، كما فى الحسية المباشرة، لكن مع ذلك يختلف هذا النقيض عن الحسية المباشرة، فى أنه غير منقسم [7]. معنى ذلك، أن هذه المرحلة (الجمالية)، قد تشير إلى أنها المرحلة التى يحيا فيها الفرد من أجل اللذة الحسية وحدها، وقد تشير أيضًا إلى أنها النظرة التأملية التى من خلالها، يلاحظ الفرد الظواهر التى تبدو أمامه.

وهذا ما يظهره تقسيم المرحلة إلى حسية مباشرة، وجمالية تأملية. والخاصية التى يراها كيركجور مشتركة بين طرفى نقيض المرحلة الجمالية هى "غياب القرار"، مما يؤدى إلى ضياع ذات الفرد، إما من خلال تجلى عامل "المتناهى"، الذى يظهر بوضوح أثناء محاولة إشباع الفرد لرغباته، أو عامل "اللامتناهى"، وذلك حين تضيع الذات فى الجانب النظرى التأملى.

والروح فى هذه المرحلة، لا تتحد كروح، بل تتحدد على نحو مباشر، لأنه لا توجد ممارسة للإرادة عن طريق اتخاذ القرار، ومن ثم لن تكون هناك ذات حقيقية واقعية، لأن الذات تتحدد على أنها مواهب طبيعية فحسب.

« تعبر المعاناة الجمالية عن ذاتها فى كلمات، وربما تشير فى حقيقتها إلى أن الفرد يدرك ذاته الحقيقية لكى يفقدها فى المثال، بينما تعد المعاناة الوجودية حاضرة، كلما يكون المثال حاضرًا فى علاقة مع الوجود الإنسانى للفرد بحيث يحوله (إلى وجود فعلى). لو تحققت الأهداف المطلقة أى (المثالية) فى اتصال ذاتها بالوجود العينى للفرد، فى تحوله بشكل مطلق، فلن تكون العلاقة علاقة معاناة وجودية، بل علاقة معاناة جمالية » (8)

ثانياً : المرحلة الأخلاقية The Ethical Stage:

وهى المرحلة التى تلى المرحلة الجمالية فى التقسيم الثلاثى لجدل المراحل عند "كيركجور"، وهى ليست مقسمة، كما هو الحال فى المرحلة الجمالية، وتعتبر مرحلة انتقالية من المرحلة الجمالية إلى المرحلة الدينية، حيث إن الفرد، يختار ذاته أخلاقيًا فى هذه المرحلة، وذلك باستبعاد المرحلة الجمالية، غير أن هذا الاستبعاد ليس استبعادًا كليًا، لكنه استبعاد نسبى. ذلك أن الفرد لا يصبح بالاختيار الجديد شيئًا غير ذاته. ولهذا فإن المرحلة الجمالية، وإن كانت قد تقلصت فى المرحلة الأخلاقية، إلا أنها لم تتلاشى البتة.

« تعتبر الشخصية فى المرحلة الأخلاقية مركزة فى ذاتها، لذلك يتم استبعاد الجمالية، أو تستبعد بوصفها المطلق (المثال)، لكنها ترحل بشكل نسبى. بالاختيار ذاته، تختار الشخصية ذاتها أخلاقيًا، وتستبعد الجمالية بكل ما فى الكلمة من معنى. لكن نظرًا لأن الفرد يختار ذاته، ونظرًا لأنه لا يصير وجودًا آخر من خلال اختياره ذاته، فإن كل الجمالية تعود ثانية بشكلها النسبى» (9).

إن السمة الرئيسية للمرحلة الأخلاقية، هى قدرة الفرد على اتخاذ القرار، أو ممارسة الاختيار. بمعنى أن الذات من خلال وجودها فى الزمان، تصير قادرة على اتخاذ قرار إما ـ أو، وتصير قادرة كذلك، على ممارسة إرادتها الحرة، وهذا كله يعبر عن فرديتها.

ثالثاً : المرحلة الدينية The Religious Stage:

وهى المرحلة الثالثة فى جدل المراحل عند "كيركجور"، وتنقسم مثل المرحلة الجمالية إلى مرحلتين:

1ـ مرحلة الدينى أ "Religion A" : وتتسم بأنها تفصل بين الله والعالم. فالفشل فى التفرقة أو التمييز بين الله والعالم ـ الذى يظهر فى المرحلة الأخلاقية ـ يؤدى فى هذه المرحلة، إلى الفشل فى التعرف على اعتماد الذات، اعتمادًا مطلقًا على الله.

2ـ مرحلة الدينى ب أو المسيحية "Religion B, Christianity": وتعد المسيحية هدف هذا الجدل للمراحل، حيث تمثل عند "كيركجور"، النقطة التى يكون فيها التوازن ثابتًا داخل الذات.

وتتسم هذه المرحلة، باهتمام الذات بتحقيق سعادتها الأبدية، وذلك من خلال اعتمادها المطلق على الله. بمعنى أن تطور الذات بالإيمان أثناء المرحلة الدينية الناتج عن معرفتها بالاختلاف المطلق بين الله والعالم (الذى كانت توحد بينهما أثناء المرحلة الأخلاقية) يظهر اهتمامها الأساسى، الذى يعنى أن هدفها الجوهرى هو وجودها مع الله.

> **« بينما يعتبر الوجود الجمالى متعة جوهرية، ويعتبر الوجود الأخلاقى صراعًا جوهريًا ونصرًا، يعد الوجود الدينى معاناة جوهرية، وذلك ليس بوصفه لحظة انتقالية، وإنما بوصفه إصرارًا وعنادًا .... تعتبر المعاناة، معاناة داخلية تمامًا، لأنها تفصل ذاتها عن النماذج الجمالية والأخلاقية»**(10)

يظهر من هذا الجدل الكيركجورى لمراحل الوجود، ارتفاع هرمى، يعبر عن تطور هذه المراحل وجوديًا، مارًا من الحياة الجمالية عبر الحياة الأخلاقية إلى الحياة الدينية. وهذا يوضح، أن هذه المراحل متصلة اتصالاً جدليًا، فكل مرحلة تنجح فى أن تحل محل سابقتها، بينما فى الوقت نفسه ترفعها داخل ذاتها، على حين تعطيها وضعها الشرعى نسبيًا.

ولكن ماذا يبقى بشأن المرحلة الدنيا، بعد أن يختار الإنسان المرحلة الأعلى؟ يرى كيركجور، أن مرحلة الوجود الإنسانى، المستبعدة فى التطور الجدلى، لا تختفى ببساطة، لأنه يوجد احتياجات وقدرات جمالية، وأخلاقية فى كل إنسان لا يمكن انفصالها، مع ذلك لا تصبح القيم الدنيا، قيمًا حقيقية، وذلك عندما يتم إدراكها من خلال التطور الجدلى للمراحل. إنها فى الواقع أدنى من أن تكون مندمجة فى المستوى الأعلى للتطور الجدلى، ولخدمة غاياته العليا.

ومن هنا يتضح، أن النموذج الأخلاقى للوجود يلائم القيم الجمالية، ولكنه يتحقق فعليًا من خلال الفرد الدينى. (11) ومن ثم تعد الصعوبة فى هذا البناء الهرمى للمراحل، هى العلاقة بين المرحلة الجمالية، والمرحلة الدينية، وبصفة خاصة بالنسبة للوجود المسيحى.

يرى كيركجور، أن أزمة الإنسان الحقيقية تتجلى بين الاتجاه الجمالى العام للحياة، وبين الاتجاه الفردى، ذلك لأنه يوجد ثبات دائم ـ بمعنى تحقيق الفرد لذاته ـ يتأسس على أخلاق مجردة.

وعلى ضوء ذلك، يقف كيركجور على نقيض كل المحاولات التى تجعل الفرد الأخلاقى، "مكتفيًا ذاتيًا" Self-Sufficient. فالمبادئ الأخلاقية تقيد وجهة نظر الفرد الدينية، بمعنى أنها إما تجعله لا يدرك المغزى الدينى، أو أن هذه المبادئ تعد حديثًا جماليًا حول الوجود الأخلاقى. وعلى ذلك، تعتبر المجالات الاختيارية التى توجد فى العالم، والمنعزلة عنه، من خلال المبادئ الأخلاقية المجردة، هى نماذج الوجود الجمالى، والوجود الدينى.

> **« ترتبط المرحلة الأخلاقية، والمرحلة الدينية بعلاقة جوهرية فيما بينهما. وتعتبر الصعوبة مع إما ـ أو كاملة، بعيدًا عن النتيجة الأخلاقية كما نرى. يصبح واضحًا ـ فى المراحل ـ أن المرحلة الدينية هكذا توضع فى مكانها المناسب »** (12)

خلاصة هذا، أن التقسيم الثلاثى للمراحل عند كيركجور، لا ينزع إلى تبديل

اتجاه إما ـ أو الأساسى، وكذلك لا يتسم باتجاه تجريدى، إلى الحد الذى يعنى أن المرحلة الثالثة تعتبر مركبًا من المرحلتين الأوليتين. وآية ذلك، أن المرحلة الأخلاقية لا يمكن إنجازها أبدًا، باعتبارها مرحلة مستقلة، ومن ثم لن يتحرر الفرد من الاختيار النهائى بين النموذج الجمالى، والنموذج الدينى للوجود الإنسانى. ولا يمكن النظر إلى المرحلة الدينية، بوصفها مركبًا توسطيًا بين المرحلتين الأوليتين، ذلك لأن كل مرحلة تتجسد فى شكل عينى، على أنها طريق فى الحياة.

ولا يتوقف المرور، أو القفز من مرحلة إلى أخرى على أى ضرورة داخلية لهذه المراحل، وليس هو انتقالاً مفاجئًا ناشئًا بمثل ما يدعوه هيجل:

"قوة السلب"، من خلال عملية الرفع (13).

2ـ التفسيرات المختلفة لمراحل الوجود :

تتم محاولة تفسير مراحل الوجود عند كيركجور، بالنظر إليها من أربعة أوجه رئيسية، **أولاً: أن هذه المراحل تمثل مراحل تطور شخصية كيركجور ذاته.**

> **« الحقيقة أننى عالجت فى الأعمال التى تحمل أسمى، وكذلك فى أعمالى الاستعارية، ووصفت وصفًا أساسيًا، وعلى نحو ما أفعل دائمًا فى المراحل المختلفة التى مررت بها، حتى وصلت إلى النقطة التى أكونها الآن »** (14)

على الرغم من أن التخطيط البيانى الذى يظهر من خلال ثلاث فترات رئيسية فى حياة كيركجور، والتى تتمثل فى: فترة الضياع، أثناء سنوات الدراسة، وفترة التعهد الأخلاقى أثناء ارتباطه "بريجينا أولسن"، وأخيرًا فترة نضجه المسيحى الذى كان فى سنوات حياته الأخيرة، يوضح أن مراحل الوجود، تعبر عن تطور شخصية كيركجور ذاته.

ولكن الواقع هو، على العكس من ذلك، فإن المتأمل لحياة كيركجور، يجد أنها حياة قاصرة، قليلة التجارب، وتعتبر خبرته، التى تظهر من خلال كتاباته

الاستعارية ضحلة، فمن ثم، لا يمكن التسليم بهذا التفسير القائل، إن هذه المراحل، هى الأوجه الأساسية لتطور حياة كيركجور [15].

* **ثانيًا: أن هذه المراحل، تمثل مراحل تطور تاريخ العالم.**

يرى كيركجور، فى مفهوم "التهكم"، أن هذه المراحل، تصور مراحل لانبثاق إدراك الإنسان لطبيعة ذاته. بمعنى أن مرحلة معينة فى التاريخ، من الممكن أن تمثل مرحلة جزئية للوجود الإنسانى. ويبدو أن هذا التفسير أقرب إلى وجهة النظر الهيجلية، وليس لوجهة النظر الكيركجورية كلية [16]، حيث نجد أن هيجل يقسم التاريخ تقسيمًا ثلاثيًا وفقًا لمسار الروح وتحررها أو وعيها بحريتها، وبذاتها الخاصة.

فهناك "المرحلة الشرقية"، وهى مرحلة مغموسة فى الحس، حيث لا نجد سوى شخصية واحدة هى الحاكم، هى التى يمكن أن نقول إنها حرة. ثم هناك "المرحلة اليونانية" وتمثلها أيضًا "أنتجونا" بإرادتها الأخلاقية القوية التى تجعل الأخلاق تعلو على القانون، حيث نجد البعض أحرارًا.

وأخيرًا "الحضارة الجرمانية" وهى تعتمد على الديانة المسيحية، التى أشاعت المبدأ الذى يقول، إن الإنسان بما هو إنسان حر. ومن هنا نجد أن الحقب التاريخية الثلاث يمكن أن تسير موازية لمراحل تطور الفرد الشخصى [17].

ووفقًا لهذا الثالوث الهيجلى، فإن المرحلة الجمالية عند كيركجور، بطرفيها المتناقضين (الحسية المباشرة، والجمالية التأملية) تتمثل فى الفترة السوفسطائية، وما قبلها، وذلك فى السير التاريخى للعالم [18].

تتسم فترة ما قبل السوفسطائية، بمزيد من المشاركة فى السعادة الحسية، وكذلك تعتبر سبيلاً ممهدًا إلى سقوط الدولة الإثينية. أما فترة السوفسطائية، فإن ما يميزها بوصفها نقطة تحول هامة فى تطور تاريخ العالم، هو أن معها "يبدأ التأمل":

« تمثل السوفسطائية المعرفة فى حالة من كثرة مبعثرة، ممزقة ذاتها، بحيث انفصلت عن الأخلاق المادية، خلال يقظة الفكر. إنها مثلت حضارة مستقلة

ومنفصلة، شعر كل فرد فيها بالحاجة إليها: أعنى كل فرد فيها، قد انتهى بالنسبة له سحر المباشرة » (19)

بدأت السوفسطائية طريقًا جديدًا، فى عملية انبثاق الوعى الذاتى، فالذات الفردية فى فترة ما قبل السوفسطائية، لم تكن قد تميزت بعد، عن البيئة المحيطة. بمعنى أنها ظلت خاضعة لسيطرة السعادة الحسية، وكذلك سيطرة عوامل خارجية عن الذات مثل الدولة. فمن ثم لا يوجد تعين ذاتى فى هذه الفترة، لكن الأفراد بدأوا مع السوفسطائية يميزون أنفسهم عن المحيط الخارجى، وذلك عن طريق بداية ظهور الفكر الذاتى مع سقراط.

لقد كان لسقراط ـ من وجهة نظر كيركجور ـ دور حاسم فى هذه الفترة من تاريخ العالم، حيث كشف عن الذات، بوصفها حقيقة ذاتية مستقلة عن تعينها الخارجى. وبينما كان سقراط، نقطة تحول تاريخية، فإن اكتشافه ظل إمكانية، حتى أصبح مدركًا فى سير التطور التاريخى الأخير.

« إن تعبير "أعرف نفسك" Know thyself يعنى: افصل نفسك عن الآخر، فبمقدار ما كانت الذات قبل سقراط غير موجودة، إلى هذا الحد، فإن قرار الوحى تباعاً مطابق لوعى سقراط نفسه، عندما أمره أن يعرف ذاته » (20)

وإذا كانت السوفسطائية، وما قبلها، تمثل المرحلة الجمالية، فإن سقراط يمثل عملية انتقال من المرحلة الجمالية إلى المرحلة الأخلاقية، وذلك من خلال وجهة نظره التى كانت تهكمية (21).

أما المرحلة الأخلاقية، فى عملية السير التاريخى للعالم ـ عند كيركجور ـ فتمثلها ـ "اليهودية" Judism، وهى الخطوة الأولى فى سبيل تطوير الذات بوصفها مريدة. فمن وجهة نظر اليهودية، إن القانون، وإذعان إرادة الفرد إلى القانون، يعتبر بؤرة الاهتمام الرئيسية.

وتعد ممارسة الفرد لإرادته ـ فى هذا الإطار ـ من إذعان للقانون، شكلاً من أشكال تأكيد الذات.

« فيما يتعلق بالشعب المختار "اليهود"، كان من الضرورى بالنسبة لشكهم فى القانون، أن يعدو الطريق ..... لكى لا تؤخذ المنة على أنها عقيمة » (22)

وأخيرًا، يرى "كيركجور"، أن اللحظة النهائية، فى إدراك الإنسان لطبيعة ذاتيته، تحدث مع المسيحية. (23) حيث تمثل، المرحلة الدينية للوجود الإنسانى، ويصبح الإنسان من خلال عقيدة الخطيئة، والتجسيد، واعيًا بمغزى قراراته الأبدية، كما يصبح واعيًا باعتماده على اللّه.

إن المسيحية ـ بالنسبة لكيركجور ـ تمثل هدفًا لتطور السير التاريخى للعالم، وليست علوًا، كما هو الحال بالنسبة للرؤية الهيجلية.

ويوضح هذا، أن مراحل الوجود عند كيركجور، بوصفها مراحل فى تطور تاريخ العالم، هى رمز إلى تطور الوعى الذاتى للإنسان (24).

ثالثًا: هناك وجهة نظر ترى، أن مراحل الوجود عند كيركجور، تمثل نماذج مثالية للشخصية.

يرى كيركجور، أن هذه المراحل، تعبر عن صور مثالية لإمكانية رؤية الحياة، وتتضح رؤيته هذه، من خلال تأملاته عن ثلاثة أفكار عظمى فى الحياة، تمثل وجهات نظر مختلفة: دون جوان Don Juan، وفاوست Faust، واليهودى التائه The Wandering Jew.

« تمثل الثلاثة أفكار العظيمة (دون جوان، وفاوست، واليهودى التائه) ـ إن جاز التعبير ـ الحياة خارج الدين، باتجاهاتها الثلاثة، وعندما تكون هذه الأفكار مندمجة فى الفرد، وتصبح توسطًا، فإن فعل الأخلاق والدين يظهر. هذه هى رؤيتى عن الأفكار الثلاثة، فيما يتعلق بوجهة نظرى العقائدية » (25)

الاتجاه الأخير، الذى يتم من خلاله تفسير رؤية كيركجور لمراحل الوجود، يعبر عن الأطوار التى يمر من خلالها تطور الذات إلى شخصية ناضجة.

« تنقسم حياة الفرد إلى فترتين: فترة الشباب التى تنتمى إلى المرحلة الجمالية، ثم مرحلة ثانية وهى المتأخرة، تنتمى إلى المرحلة الدينية، ولكن عندما نتحدث بإخلاص أكثر نقول، نحن جميعًا نفضل أن نظل شبابًا » (26)

إن الحركة التى تمر بها الذات فى تطورها، من هدف سعادة حياة الجمالى، إلى ورع أو تقوى حياة المسيحى، وتعبر عنها مراحل الوجود الإنسانى، هى المواقف المختلفة التى تفترضها الذات فى حركتها تجاه المسيحية. ومن الممكن رؤية تطور الذات من خلال مراحل الوجود ـ بطريقة أخرى، حيث يرى كيركجور أن مراحل الوجود هى المراحل التى تمر من خلالها الذات، فى حركة من حالة الشخص الطفولية إلى شخصيته الناضجة. إن كل مرحلة تبعًا لهذه الرؤية، متميزة جزئيًا بفترة معينة من حياة الفرد. فما يراه كيركجور، هو أن الطفل القاصر، يتحدد تمامًا، بميوله الحسية، حيث يسعى باستمرار نحو إشباع اللذة والسعادة. فى هذه الحالة تكون الروح أو الذات حالمة، فهى تحلم بذاتها، متحدة مع كل شىء، إلى الحد الذى تختلط فيه مع كل الانطباعات الحسية من حولها. بمعنى أنه يوجد فى هذه المرحلة، تمايز بين الذات، والبيئة المحيطة بها.

وبما أن تطور الذات يمثل من خلال رؤية المراحل، تطور تاريخ العالم، فإن كيركجور يبرهن على أن التاريخ الكلى للعالم، يتكرر داخل المسيحية فى الأفراد.

إننا نرى ـ عند كيركجور ـ أن تطور الذات الفردية، متماثلة مع فترة تطور التاريخ فمثلاً [27]، فترة ما قبل السوفسطائية، تتماثل مع الفترة التى يكون فيها الطفل غير متميز عن البيئة المحيطة من حوله، ولكن هذه الفترة، تبدأ فى الإخفاق، حينما يبدأ الطفل فى استخدام اللغة والفكر خلال التأمل. فالطفل ـ فى هذه الحالة ـ يحدد ذاته عن البيئة المحيطة، ويبدأ الوعى الذاتى فى الانبثاق تدريجيًا. وهذه المرحلة تتطابق مع مرحلة تاريخ العالم، المتمثلة فى "السوفسطائية".

إن هذا التماثل بين تطور الذات لدى الطفل، وفترة السوفسطائية، وما قبلها يوضح تفسير رؤية المراحل، بوصفها أطوارًا فى تطور الذات، حيث إن المرحلة الجمالية بطرفيها المتناقضين (الحسية المباشرة، والجمالية التأملية)، تمثلت فى الطفل، التى بدأت ذاته فى انتزاع ذاتها، من خلال تطور قدرته على التأمل، وذلك

بتخيله أهدافًا، وأدوارًا مختلفة يمكن أن يقوم بها. ومن ثم يتحول الطفل إلى الداخل، لأن الوعى الذاتى يبدأ فى الظهور. ومع ذلك، فإن الذات، تظل فى حالة إمكان.

يعتبر العالم تاريخيًا قبل سقراط، ذاتًا لم توجد، وحتى إلى مرحلة سقراط، لا توجد ذات فعلية أيضًا، وذلك لأن انبثاق الذات الفعلية، يتطلب أن تكون الإرادة نشيطة، وأن تعبر عن نفسها من خلال تحقيق إمكاناتها، المتخيلة. معنى هذا، أن الطفل أو الشاب، يجب أن يكافح، لبلوغ الأهداف التى يتخيلها.

إن التأكيد على الإرادة، يظهر فى مرحلة تطور تاريخ العالم مع اليهودية، حيث يحدث تطور للذات فى المرحلة الأخلاقية فى الوجود.

أخيرًا، يرى "كيركجور"، أن المغزى الأبدى لقرارات الفرد، يتم تأكيده مع المسيحية من خلال الوعى بخطيئة الفرد ذاته، وإمكانية الإيمان، حيث يكسب الفرد من خلال المغفرة التى يرسخها التجسيد، إدراكًا واضحًا لبنية ذاته.

معنى ذلك، أن الشخصية الأصيلة، من الممكن الوصول إليها، عندما يحيا الفرد داخل المقولات المسيحية، حيث يرى كيركجور، أن علاقة الفرد الخاصة بالله، هى التى تشكّل التطور التدريجى للذات من التطابق اللامتمايز مع البيئة، إلى مرحلة الشخصية الأصيلة.

★★ خلاصة هذا :

يرى "كيركجور"، أن السمات التى تسود مرحلة من مراحل تطور الذات، من الممكن أن تكون وجهة نظر لرؤية العالم الكامل للذات الناضجة، ومن الممكن أن تكون أيضًا صورًا مثالية للشخصية.

إن الإنسان يستطيع أن يحيا كل حياته، تبعًا لمبدأ اللذة والسعادة، أو يستطيع أن يحيا حياته الكاملة دون صنعٍ للقرار الحقيقى، إنه باستمرار يدع الآخرين يحددون له الطريق.

وآية ذلك، أن الإنسان المتقدم فى السن، عند "كيركجور"، من الممكن أن يظل طفلاً، ومن المحتمل ألا يطلق عليه "ذات"، ويحيا حياته كلها فى الاعتماد الذاتى على الغير، وهذا يتمثل فى أول انبثاق للشخصية فى حياة الطفل.

ومن هنا، ليست الأوجه الأربعة، التى تتم من خلالها رؤية المراحل، متساوية من حيث الدقة فى التفسير، وإنما يبدو أن الرؤية الأكثر ملاءمة لنظرية المراحل عند كيركجور، تكون من خلال توحيد التفسيرين الآخرين: المراحل بوصفها نماذج مثالية للشخصية، والمراحل بوصفها تطورًا للذات الفردية (28).

لذلك آثرنا، أن نتبع فى تحليلنا لمراحل الوجود عند كيركجور هذين التفسيرين.

❋ ❋ ❋ ❋

مصادر ومراجع الفصل الثالث

(1) James Collins, The Mind of Kierkegaard, Henry Regenry Company, 1953, P. 43.

(2) Mark, C, Taylor, Kierkegaard's pseudonymous Authorship, P. 62.

(3) J, Collins, The Mind of Kierkegaard, P. 45.

(4) د. إمام عبدالفتاح. كيركجور رائد الوجودية، جـ 2، ص 128.

(5) S, Kierkegaard, Postscript, PP. 255-256.

(6) Ibid., P. 261.

(7) M.C., Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authors ship, P. 76.

(8) S, Kierkegaard, Postscript, P. 347.

(9) S, Kierkegaard, Either / or, V.II. P. 182.

(10) S, Kierkegaard, Postscript, P. 256.

(11) J, Collins, The Mind of Kierkegaard, P. 46.

(12) S, Kierkegaard, Postscript, P. 261.

(13) J, Collins, The Mind of Kierkegaard, P. 48.

(14) S, Kierkegaard, Attack on Christendom, Translated by Walter Lowrie, Princeton University Press, 1968, P. 52.

(15) M.C. Taylor, Kierkegaard's pseudonymous Author ship, P. 64.

(16) Ibid., P. 73.

(17) د. إمام عبدالفتاح، كيركجور رائد الوجودية، ص ص 135 ـ 136.

(18) M, C, Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Author ship, P. 64.

(19) S, Kierkegaard, The Concept of irony, PP. 225-226.

(20) Ibid., PP. 202-203.

(21) M.C. Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Author ship, P. 66.

(22) S, Kierkegaard, The Concept of irony, PP. 235-236.

(23) M. Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Author Ship, P. 67.

(24) Ibid.,

(25) S. Kierkegaard, The Journals, P. 26.

(26) S. Kierkegaard, The Point of View, P. 31.

(27) M. Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Author ship, P. 72.

(28) Ibid., P. 74.

❋ ❋ ❋ ❋